قصة قصيرة

عن الذهاب والعودة.. وما بينهما

د. خليل فاضل

الـــذهـــاب

«والشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم».

(صلاح عبدالصبور)

وطئت بلدتي بعد زمن، وطئتها وأنا متبلّد تماماً، أعطيت الحمال الحقائب وسرت أمامه في الطريق المعروفة، ثمة رائحة عفن تنتشر داخلي وحوالي، خطوي بطيء، وعيناي تمسحان الأشياء في هدوء، هدوء جنائزي. لحظت أن هناك ازدحاماً في الكم والأشياء ممتزجاً بلزوجة حادَّة. زعقات الكوَّاء والنَّجَّار والبقَّال والخيَّاط تطرق أذنيّ بسخرية، نداءات جوفاء متلكئة.

(اتفضل... اتفضل اشرب شاي، حمد الله ع السلامة يا بيك).

خطوي ما زال متبلّداً، طين الأرض الممتزج بالروث ينداح على كل أجزاء جسدي، وجسدي يرتجّ، أقف عند عتبة بيتنا، تأخذني أمي في حضنها، تقبّلني، تهدهدني وتواصل حديثها عن اشتياقها لي، فعلت أختي الشيء نفسه، دقّقت النظر في الأثاث والجدران، تباطأت، ربَّت على المنضدة المقامة وسط الصالة، والمقاعد والأبواب والحوائط، ولما اطمأنت لها نفسي تيقنت من عدم تغيّرها ومن ارتياحها كجماد مستكين.

التفتّ إلى أمي وسألتها عن صحتها وحالها مع الدنيا وكيف الشوق بها؟ ثم تابعت أختي بالسؤال، وبعدئذٍ تولّت أمي وأختي مواجهتي بسؤالهما عن أخي وحاله مع الدنيا وكيف الشوق به!!... كانت الردود كلها مقتضبة... وفي الصميم.

مرة أخرى جلت في حجرات البيت. شممت أشيائي القديمة، القديمة جداً، انبعثت منها روائح غريبة أثارتني فشرعت أقلبها لأبحث عن شيء ما بها لكني لم أجده.

أعدَّت أمي طعاماً طيِّباً لي، كان خصِّيصاً ومجهزاً بدقة. التهمته وأتبعته بماء مثلج ثم استسلمت لسكون قطعه ثغائي عن أحوالي وأحوال الآخرين حتى عاد أبي من عمله فتلقَّفني بطريقة أمي وعاودنا سؤال أنفسنا مرة أخرى عن الأحوال مع الدنيا، عن الصحة، وكيفية الشوق بنا...

ولما انتهينا، لجأت إلى فراشي، ورغم احتياجي الشديد إلى النوم، إلا أن أرقاً مزعجاً ظلَّ يناوشني فاسترسلت في عالم لا نهائي بدأه الضوء الأصفر المنبعث من اللمبة المضاءة للونس. تلمست الغبار الذي تركه السفر على جسدي، تشابكت رؤى عديدة داخلي، تطاحنت، ولما لم تنتصر منها واحدة غلبني النعاس فنمت ونمت ونمت...

اليوم الأول

الزلط في السكة الحديد أنواع، نوع بين الفلنكات: أسود بفعل زيت القطار، حارّ بحرارته، سجين بين قضبانه، في أحيان كثيرة كان يحلو للصبية أن يتبولوا فوقه فيحدثوا صوتاً ثاقباً وطرطشة واتساعاً لمساحة المكان المغمور بالمياه الصفراء... ونوع عند الشوك لا يلمسه أحد، ولا يلحظه أحد، فهو في حماية. ونوع أخير متماسك مع الاسمنت المسلح ساكن في جدار السِّكَّة، تتكسَّر من فوقه الأغطية الاسمنتية فيتعرَّى فيشاهد بوضوح المتبرزون داخل السِّكَّة...

اعتليت السور من خلال الفتحة الموجودة من زمن، فتحة غير مشروعة فتحها بعض الخارجين عن القانون، توقفت وداعبت الزلط العاري في السور، ربت فوقه في حنان. سألته عن صحته وحال الدنيا معه وكيف الشوق به. أخبرني أن القطارات تنقل أنماطاً عجيبة من الناس كل يوم في الصباح وتعود بهم آخر النهار، وأنه في الليل تأتي نساء بأجنة مجهضة وترميها في الغور، وأن صبياناً شاذين يمارسون الجنس، وأن بناتٍ وأولاداً يقبلون بعضهم

ويحتضنون، كذلك فإن هناك لصوصاً يتخفون، وامرأةً عجوزاً تأتي فجر كل يوم لتقطف زهر الشوك وتسير في اتجاه الغرب، وقال إنه يسمع تفكهات الرجال، وأحاديث السادة، وشكاوى الزوجات.

شكا لي من أن بعضهم من كل الأصناف السالفة الذكر، يمسح فيه الشحم والمخاط والدم والقيء وسوائل أخرى مخزية ومقرفة ومنفرة للغاية... ثم عبر لي ــ رغم هذا كله ــ عن ارتياحه لسكنه الدائم في السور ولتزاوجه السعيد مع الاسمنت والخرسانة، وأنه محسود من قبل كل أنواع الزلط الأخرى التي تهج ويقذفها العيال على العشاق ويرميها الصبية على الأشقياء ممن يقضون حاجتهم وسط السكة.

عدت إلى البيت، وعندما حان موعد النوم، أطفأت اللمبة الصفراء المضاءة للونس، ونمت حتى الصباح.

اليوم الثاني

بدت كل الأشياء كلها بدون استثناء، بليدة وصماء ولزجة. اتفقت أنا والأصدقاءعلى أن البلدة لها خاصة وحيدة مميزة متواجدة في جميع الإناث ومنتشرة بينهن مهما كانت أعمارهن، ألا وهي أنهن يمتلكن أردافاً كبيرة، قطعت المشوار من طرف البلدة حتى الطرف الآخر دون مجهود وبتمتع شديد. اتفقت أمي وأختي على أني شارد هذه المرة. أسرفت في تأمل الحوائط والمحال التجارية، الحوذيين والحمير وتعابير السخط الممرورة فوق وجوه الخدم.

اللقيـــا

قالت لي في دهشة محملقة:

ــ غريبة؟ مفاجأة! منذ زمن لم تأت! ماذا أتى بك؟!

ــ كيف حالك، وحال الدنيا معك؟ وكيف الشوق بك؟

ــ مهيضة أكره نفسي والناس!

ــ وأنا؟!

ــ الغائب لا يدرج في الحسبان!

ــ شعرك منشور وطويل!

ــ عيناك خابيتان.

ــ أسنانك صارت كبيرة!

ــ شكلك ممتقع، متهالك...

ــ ما رأيك في الأشياء!؟

ــ سأهجر البلدة!

ــ متى؟

ــ بعد الانتهاء من الحصول على الشهادة!

ــ ومتى تأتين؟

ــ لن أعود.

ــ تبدين متغيرة كثيراً.

ــ إني مريضة!

ــ متى سألقاك ثانية؟

ــ بعد ساعة.

ــ أين؟

ــ داخل هذا البيت ذي الباب الموصد!

ــ سأنتظرك!

ــ لا... سأمرّ عليك.

لم تأت. ولم تمرّ، انتظرت طويلاً دون فائدة، فجأة خرج لسانها من شق الباب الموصد، استطال تضخم، أتى إليّ خلف السكة، صفعني في قسوة، أفقت، سرت حتى البيت، دون أي انتباه أو تعديل لتوزيعات الإضاءة، ضاجعت الفراش حتى الصباح.

العـــودة

حملت الحقيبة المتخمة، أعطيت وجنتي لقبلات أبي وأمي وأذنيّ لنصائحهما ويديّ لنقودهما بعد أن عددتها.

ذرعت الطريق كالفتى المغوار أفلج السكة قبل الجميع بشيء ما يشبه الحماقة. اهتزت العربة فاهتز معها جسدي، دخلت الشمس إلينا في تحدّ. غفوت وأفقت ثم غفوت وأفقت حتى وصلنا إلى العاصمة، أفرغت محتويات ومحتويات الحقيبة، توجهت إلى أصدقائي. قبلتهم وسألتهم عن حصتهم، عن حال الدنيا معهم، وكيفية الشوق بهم، ولما أجابوني بإجابات تشبه إجابات أسرتي مضيت. وقفت خارج مدرج الكلية راقبت زملائي وهم منهمكون في الكتابة والإنصات، دعوني إلى الدخول لكني أحجمت.

أيقظت صديقاً قديماً من نومه، أخبرته أنني سأقص عليه أخباراً هامة، اغتسل ثم أعدَّ الشاي وجاء بي إلى الشرفة في اهتمام. أصاخ السمع. حكيت له عن كل شيء. أنزل قدميه الحافيتين من على سور الشرفة، دق بهما البلاط، ونظر إليّ بغرابة، ثم قال بهدوء شديد:

ــ لقد صرت فكهاً... ذا دم خفيف!

□ □ □